الفصل الأول

نظرات في نشأة التاريخ العربي الإسلامي
رؤية في تحديد الأسس والمنطلقات

obeikandl.com

obeikandl.com

ازدهرت العراق خلال العصور العباسية الأولى، فأدى هذا الازدهار إلى توافر مبررات مهمة وأساسية لنشأة الكثير من العلوم الإنسانية والصِرْفة، ومرد ذلك للحاجات الفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي في العراق، ولعل من أهم هذه الحاجات علم التاريخ[١].

ولا شك أن الباحث في الحضارة يدرك أهمية دراسة الفكر التاريخي في العراق، لإمكان كشف الأسس التي أدت إلى نشوء فروع وحقول عديدة للمعرفة الإنسانية، خاصة وأن للتاريخ والحضارة مكانة في تدوين الإنجازات الحضارية العظيمة للعراق في ظل الخلافة العباسية، وبيان دوره في بناء الحضارة الإنسانية، ولعل الإنتاج العلمي الزاخر للمؤرخين العرب في العراق في تلك الحقبة الثرية[٢] كان حائط صدٍّ قوي ضد كتابات المستشرقين الذين سعى معظمهم إلى النيل من الحضارة العربية الإسلامية، وفقاً لنظرياتهم وفلسفاتهم التي اتضح لاحقاً أنها مشبوهة إلى حد كبير.

وبعد الفتح الإسلامي للعراق، وبعد الاستقرار العربي في حاضرتي الكوفة والبصرة؛ وفيما بعد في حواضر بغداد وواسط؛ نجد أن هذه الحواضر صارت بمثابة مراكز إنطلاق أساسية للحركة الفكرية الناهضة للحضارة العربية الإسلامية[٣]، وكان للتاريخ نصيب منها[٤]، حيث تهيأت مجموعة عوامل ساهمت في بلورة علم التاريخ ومن أهم هذه العوامل ما يلي:

عندما تم اختطاط الكوفة والبصرة؛ لعب البعد القبلي دوراً حاسماً في رسم المعالم

---

[١] ابن النديم : الفهرست، ص٣٣٩ وما بعدها؛ وانظر : أحمد رفاعى : عصر المأمون، القاهرة، ١٩٢٧م، ص٣٧٥ وما بعدها ؛ عبدالمنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٦م، ص١٥٦،١٥٧ ؛ حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٨٤ وما بعدها .

[٢] عن ذلك بالتفصيل أنظر : محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، دار الانتشار العربى، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ج٥ ص١٩ وما بعدها، ص٩٧ وما بعدها.

[٣] أحمد أمين : ضحى الإسلام (نشأة العلوم فى العصر العباسى الأول)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٧٧-٨٥.

[٤] نفسه، ص٣١٩-٣٦٠.

العمرانية لهما، فتم تقسيمها حسب القبائل العربية الوافدة من الجزيرة العربية، فانعكس تأثير هذا التقسيم القبلي على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية، ولذلك كان من أهم ما نتج عن علماء هذه المرحلة الكتابة في الأنساب والمآثر والأخبار والأمجاد والأيام والشعراء، وكل ما يخص القبيلة في كافة شئونها[1]، ومن هنا يمكن القول إن مدرسة الكوفة والبصرة كانتا بمثابة المنبع الأول لنشأة المدرسة التاريخية في العراق، التي صُبغت في البداية بالاتجاهات القبلية كنتيجة طبيعية للتأثر بالتقاليد القبلية، ويبقى السؤال: **هل استمر الاتجاه القبلي في التدوين التاريخي في هذه الصورة؟**

يمكن القول بأن الاتجاه القبلي تأثر إلى حد كبير باتجاهات المُحدِّثين من حيث الشكل والمضمون والمنهج، وسنتناول هذه القضية لاحقاً.

ومما يجب التأكيد والإلحاح عليه؛ تلك الفكرة العظيمة التي جاء بها الإسلام، ألا وهي فكرة (الأمة)، تلك الفكرة التي أثَّرت تأثيراً قوياً في منهج كتابة التاريخ العربي الإسلامي، فقد حدث تحول كبير عن منهج الكتابة القبلية، باعتبار أن القبيلة هي (نواة الأمة) إلى التركيز على الأمة، فتم التحول من تدوين مآثر القبيلة (الأمة الصغيرة) إلى تدوين الأخبار والقصص التي تتعدى حدود القبيلة لتشمل المجتمع العربي والعالمي كله، ولذلك نجدهم يتحولون من حدود الرقعة الجغرافية للعراق إلى كتابة تاريخ العرب في جزيرتهم، وفي اليمن والشام ومصر، ومن ثم عبَّروا عن روح الأمة وليس القبيلة التي كانت نواة الكتابة التاريخية[2].

ومن الإنصاف التأكيد على أن التوجه نحو كتابة التاريخ الإسلامي كان قد ظهر وبدت ملامحه بوضوح في المدينة المنورة، مقر هجرة النبيﷺ، وما لبث أن تأثرت كافة الأمصار بطبيعة الكتابة التاريخية بالمدينة النبوية، التي ركزت على تدوين سيرة الرسول الأعظمﷺ، وتدوين أعماله، ومغازيه[3]، وكان منهج الكتابة التاريخية للمدينة النبوية يركِّز على الإسناد

---

(1) عبدالعزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٢٣.

(2) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط ١٩٨٣م، ج١ ص ٢٠٧ وما بعدها ؛ وانظر : محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، دار الانتشار العربى، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ج٥ ص٢١ وما بعدها .

(3) السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص٥٤.

تماماً كما في علم الحديث، إلى جانب الاهتمام بقصص الأنبياء والأمم السابقة التي تناولها القرآن الكريم.

وكان أول من اهتم بهذا في المدينة النبوية أبان بن عثمان (ت١٠٥هـ/٧٢٣م)، وهو أول من اهتم بمغازي الرسولﷺ[١]، ثم جاء من بعده محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ/٧٦٨م)، والذي نجح في وضع شرائط كتابة السيرة النبوية، فخرج عن منهج المحدثين من أهل المدينة في كتابة السيرة، حيث استهل كتابه بذكر بدء الخليفة[٢]، وهو ما عده أهل الحديث خروجاً عن نطاق الحديث النبوي، وهو ما جعل ابن إسحاق يتعرض لنقد شديد، حيث يرى العلامة الدكتور بشار عواد معروف أن كُتَّاب المغازي كانوا محدثين قبل أن يكونوا مؤرخين، ولذلك جاء اهتمامهم بتاريخ المغازي باعتباره جزءاً من الحديث وروايته، في الوقت الذي اهتم فيه ابن إسحاق بالجانب التاريخي أكثر، حيث أطلق مصطلح (السيرة) ليكون أكثر اتساعاً وشمولاً مع بقاء الحديث هو المكوِّن الأساس في المادة التاريخية للسيرة، فإن بعض معاصريه لم يقبلوا روايته ومنهم مالك بن انس الذى طعن فى ابن إسحاق ولقبه بالدجال[٣].

هذا التطور في كتابة التاريخ الإسلامي انتقل أثره إلى مدرستي البصرة والكوفة، واللتان تأثرتا بمنهج المحدثين من حيث التمسك بالإسناد في كتابة المادة التاريخية، لدرجة أن أصبحت الأسانيد تتقدم الروايات التاريخية، وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح عند علي بن محمد المدائني البغدادي (٢٢٥هـ/٨٣٩م)، ومصعب بن عبدالله الزبيدي المدني نزيل بغداد (ت٢٣٦هـ/٨٥٠م)، وأحمد بن يحيى البلاذري البغدادي (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، ومحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) وغيرهم كثير[٤].

---

[١] يوسف هورفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٣-١٠.

[٢] أنور زناتى : المرجع الشامل فى مصادر التاريخ الإسلامى والوسيط، دار الأيفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٦م، ص٢٢.

[٣] مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة ترجمة حسين نصار، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٩٦.

[٤] نفسه، ص٩٧-١٣١.

وتبقى هنا القضية الجديرة بالتناول، فاستعمال الإسناد في كتب التاريخ والأدب والشعر لم يكن بنفس الدقة التي استُعمل بها في مصنفات الحديث الشريف، وذلك – بلا شك – عائد إلى الأهمية القصوى للحديث الشريف وعلوم السنة بإجمالها باعتبارها ثاني مصدر من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن البدهي أن الاهتمام بعلم التاريخ لم يكن بنفس قدر الاهتمام بعلوم السنة النبوية، وهو ما سمح بالتساهل في أسانيد الروايات والأخبار التاريخية التي لا علاقة لها بالحديث.

بل نستطيع القول إن علماء الحديث قد ابتكروا علماً فريداً على مستوى الحضارة الإنسانية قاطبةً، وهو علم (الرجال) أو بشكل أكثر دقة علم (الجرح والتعديل)، وعلم (الرواية والدراية)، وهي العلوم الفريدة من نوعها على مستوى العالم المعنية بتحري الدقة الصارمة في الكشف عن الأفراد الذين يشكلون سلسلة (السند) أو بلغة أهل علم الحديث سلسلة (العنعنات[1]).

نقول إن هذه العلوم نجحت في كشف المزورين، والمزيفين، وسيئي النية والقصد، والشَعُوبيين، وأعداء الأمة الذين أرادوا الدس على السنة النبوية، وكان تنبُّه علماء الحديث إلى هذا، ونجاحهم المثير للإعجاب في فرز الصالح من الطالح، والسمين من الغث، والثمين من الرديء، وبقيت لدى علماء الحديث وجامعيه الكثير والكثير من الروايات والوقائع التي افتراها (المجروحون)، و(المشكوك في ذممهم) و(المغتمَزون في دينهم)، أهملها هؤلاء العلماء، ولم يعيروا لها بالاً، ومن ثم رأينا المؤرخين دوما يرددون فى كتبهم قول سفيان الثورى عن أهمية التاريخ فى معرفة الكذابين حيث قال: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ[2]"، ولا شك أن مثل هذه الروايات والوقائع المدلَّسة عن تلك الفئة من رواة

---

[1] عن ذلك بالتفصيل أنظر : تقى الدين على السبكى : قاعدة فى الجرح والتعديل وقاعدة فى المؤرخين، تحقيق عبدالفتاح ابو غدة، دار الوعى، حلب، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

[2] السخاوى : الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، د.ت، ص٢٣.

الحديث كانت بمثابة مادة شيقة تدخل في باب النميمة والتعريض بالناس من جهة، والمبالغة والتهويل من جهة ثانية، والتهوين والحط من جهة ثالثة، من مثل تلك الروايات التي اعتمدها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه ذائع الصيت (الأغاني[١]).

إن هذه القضية التي نثيرها في هذا الصدد تبدو بمثابة إنذار أو إشارة تحذير من كثير من الوقائع المشار إليها التي تم دسها بشكل أو بآخر داخل مصنفات المؤرخين، وهو ما يستوجب رفع مؤشر نقد الرواية التاريخية وفحصها وتنقيحها إلى أبعد درجة ممكنة لتنقية تلك المصنفات مما لحقها من ضعف في وقائع عديدة تمس كثيراً من رموز الأمة[٢]، وخير مثال على ذلك، ما تم تطبيقه مني عملياً في التعامل مع الرواية في رسالتي للماجستير عن الحياة العلمية في عصر الخليفة الناصر لدين الله، وبخاصة فيما يتعلق بدس مجموعة من الفِرى التي ساقها عز الدين بن الأثير.

إن تأثُّر مؤرخي العراق بمدرسة المدينة، واعتمادهم منهج المحدِّثين في المدينة النبوية؛ دفعهم إلى اعتماد النقد، وترجيح بعض الروايات على بعضها الآخر، رغم الهِنَات السابق الإشارة إليها، وهو ما قوَّى ملكة النقد التاريخية لدى الإخباريين والمؤرخين، كما استفادوا أيضاً من مصنفات نقاد الأدب والشعر الذين بذلوا غاية جهدهم في إثبات الشعر الصحيح من الشعر المنتحَل[٣].

لقد تأثر مؤرخو العراق بمنهج مدرسة المدينة النبوية التي سعت إلى تناول التاريخ منذ بدء الخليقة للوصول إلى سيرة النبيﷺ، ومن ثم تناول التاريخ العربي الإسلامي، وإلى زمن متأخر من عمر الخلافة العباسية نجد هذا المنهج متبعاً في كتابات جميع المؤرخين، وإن كانوا

---

[١] محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى الراوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م، ص٢٤٧-٢٥٦.

[٢] لمزيد من التفاصيل حول أهمية علم التاريخ وفوائده أنظر : حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار الرشاد، القاهرة ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٣٥ وما بعدها .

[٣] عن قضية انتحال الشعر وأسبابها أنظر : طه حسين : فى الشعر الجاهلى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، ص٤٢-١٢٤.

قد اعتمدوا على الطبقة السابقة عليهم من خلال النقل الحرفي، ولم يكن هذا معيباً عندهم، ولم يتصد لهذه الظاهرة أيٌّ من النقاد، وللتمثيل على ذلك ما فعله ابن الأثير عندما نقل نقلاً حرفياً عن ابن جرير الطبري، كما اعترف بقلمه في مقدمة كتابه (الكامل في التاريخ) قائلا: "فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري[1] إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقا واحدا على ما تراه .فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه[2]".

ومن بين العوامل التي أدت إلى اكتمال صورة المدرسة التاريخية العراقية؛ هو ذلك الصراع الذي احتدم بشدة بين العرب والفرس، فقد كان القرب الجغرافي للكوفة والبصرة وبغداد من الفرس ذا تأثير سلبي في تأثر المجتمع العراقي بالكثير من عادات الفرس

---

[1] هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (٢٢٤ - ٣١٠) - (٨٣٩ - ٩٢٣ م) .المفسر، المقرىء، المحدث، المؤرخ، الفقيه، الأصولي، المجتهد . ولد بآمل طبرستان في آخر سنة٢٢٤ هـ أو أول سنة٢٢٥ وطرف الأقاليم واستوطن بغداد . واختار لنفسه مذهبا في الفقه .من تصانيفه : جامع البيان في تأويل القرآن (وهو المعروف بتفسير الطبري)، وتاريخ الأمم والملوك (وهو المعروف بتاريخ الطبري) . وتهذيب الآثار (طبع منه ثلاث أسفار بتحقيق الإستاذ محمود شاكر) ٠ اختلاف الفقهاء، وآداب القضاء والمحاضر والسجلات . انظر : الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢ ص٦٢ ١ - ٦٩ ١، ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيورت، ١٩٧٢م، ج١ ص٥٧ ٥- ٥٧٨، النووي . تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة - تصوير دار الكتب العلمية - بيروت، ج١ ص ٧٨، ٧٩، ابن الجوزي : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٦ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

[2] ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، دار الفكر العربى، بيروت، ج١ ص٦،٧.

وطرائقهم الاجتماعية، كما كان اختلاط العناصر غير العربية بالعرب في حواضر العراق مبرراً قوياً لظهور التنافر والتجاذب بين أبناء الجنسيات المختلفة، وهو ما طفا على سطح المجتمع العراقي متمثلاً في ظاهرة (الشَعوبية[1])، حيث يميل كل عنصر إلى الانتصار لأبناء عنصره على حساب غيره، وهو ما دفع إلى تغلغل هذه التوجهات السلبية في الإنتاج العلمي لعلماء العراق طوال فترة التاريخ العباسي، وهو أمر يجب رصده من الباحثين المعاصرين المتصدين لدراسة التاريخ العباسي، والانتباه له جيداً، فهو بمثابة "الشِراك الخداعية" التي تفتك بحسني النية من الباحثين عندما يتداولونها في بحوثهم دون تمحيص.

لقد دخلت الإسرائيليات، والروايات الفارسية، وآراء أصحاب الفرق الكلامية، والمذاهب السياسية إلى الإنتاج العلمي، وهو ما أثَّر في تنويع ميادين الكتابة التاريخية، وهذا الصراع لم يكن موجوداً لدى الجيل الأول من الرواة والإخباريين، هذا الاحتدام الشعوبي سعى جاهداً إلى الانتقاص من العرب، ومحاولة الإساءة إلى دورهم في الحضارة الإنسانية، وهو نفس التوقيت الذي أشعر العرب بأهميتهم، وأهمية دورهم في نشر الرسالة الخالدة لأنحاء العالم، وشعروا بشرف هذه المَهَمَّة، وهذا الدور، وهو ما أفرز في النهاية اكتمال المنظور الكلي للأمة المنبثق في الأساس من منظور القبيلة، كل هذا أوصل إلى الاهتمام بالتاريخ العربي في كافة الأمصار، وعاد المؤرخ إلى الاهتمام بالنسب العربي لأهميته في حياة المجتمع العربي والإسلامي، فظهرت المصنفات التاريخية التي تركز على الأمجاد العظيمة في تاريخ العرب، وتأليف المصنفات للرد على الشعوبية وطعنهم في العرب.

ومن ضمن العوامل المؤسِّسة لنشأة علم التاريخ العربي الإسلامي؛ ذلك النهوض الاقتصادي والإداري، والازدهار الحضاري الذي ساد مع انتشار الفتوح الإسلامية في أصقاع العالم، وهو ما دفع إلى التصنيف في جوانب ذلك النهوض، سواء في كل ما يتعلق بالزكاة والخراج والأموال والزراعة والحرف الصناعية والتجارة وتبادلها مع الأمصار

[1] عن أثر الشعوبية فى ظهور العديد من الحركات الهدامة فى عهد الدولة العباسية أنظر : حسن الباشا : دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٥٢-٥٩.

المجاورة[١].

ويضاف إلى هذه العوامل أيضاً؛ نشأة المدن والحواضر في كل أنحاء العراق، فانتشر نوع من التصنيف التاريخي يتعلق بتواريخ المدن، ومدى اعتزاز أبناء كل مدينة بأنفسهم في مواجهة الشَعوبيين[٢].

وكان للعوامل السياسية أثرها الفعال في نشأة التاريخ العربي والإسلامي، وكان لتشعب العوامل السياسية أثره الكبير في تطور حقول التدوين التاريخي، فالأحزاب السياسية المناوئة للعباسيين وعلى رأسها الأمويين؛ أثارت قضايا الإمامة والخلافة، وما نتج عنها من تطورات، فذهب كل مؤرخ إلى التعبير عن موقفه السياسي والمذهبي، فأبو مخنف الغامدي الأزدي (ت١٥٧هـ/٧٧٣م) كان عَلَويَّ الميل، وأحمد بن يحيى البلاذري كان عباسيَّ التوجُّه، وكان عوانة بن الحكم الكلبي أمويَّ التوجُّه يضع الأخبار لبنى أمية، وقيل بل كان علويا يأسف لفشل محمد بن عبدالله المعروف بمحمد النفس الذكية[٣].

وكان للعامل الجغرافي أثره في اتجاهات الكتابة التاريخية، وكان للعامل الإداري أثره أيضاً في الكتابة في هذا التخصص الفريد المتميز، فقام المؤرخون بالتصنيف في الإدارة

---

[١] من أشهر من صنف فى هذا المضمار أبو يوسف صاحب أبى حنيفة الذى صنف كتابه الشهير الخراج، وكتاب الخراج ليحيي بن آدم، ورسالة الصحابة لابن المقفع والتى تدور حول الجند والقضاء والخراج، وكذا أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الأموال، وابن زنجوية صاحب كتاب الأموال، والداوودى صاحب كتاب الأموال، والخزاعى التلمسانى صاحب كتاب تخريج الدلالات السماعية على ما كان فى عهد النبى من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية . أنظر : عبدالباقى السيد عبدالهادى : كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهرى وأثره فى الحضارة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٧م، ص٨١-٨٩.

[٢] مثل تاريخ البصرة لابن دهقان، والبصرة لعمر بن شبة، وبغداد لأحمد بن أبى طاهر، وبغداد لابن إسفنديار، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى، وغير ذلك مما يخص مدن الشام ومصر والأندلس وخلافه . أنظر : السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١٥٣،١٥٤ ؛ عبدالباقى السيد عبدالهادى : التدوين التاريخى عند ابن حزم الظاهرى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٧م، ص١٥٥-١٥٧.

[٣] مرغليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص٩٥.

والتنظيم، فكتبوا عن تاريخ الخلفاء، والوزراء، والأمراء، والولاة، وقادة الجيوش، والقضاة، وكبار التجار، وأصحاب الدواوين[1].

وكان لتأثير القرآن الكريم على المؤرخين دوره في انتشار الكتابة التاريخية البادئة منذ بدء الخليقة إلى التاريخ الذي يعيشه المؤرخ بالفعل، وهو ما يؤكد النظرة الشمولية الموسوعية العالمية للمؤرخين آنذاك، فقد أكد القرآن الكريم على ضرورة التأمل في الكون، والتعرف على الأمم السابقة، وتتبع أخبارها للحصول على العظات والدروس، وهو ما شجع فريقاً كبيراً من المؤرخين على اعتماد هذا الشكل من الكتابة التاريخية[2].

وفي الأخير؛ فإن علم التاريخ في العراق العباسية كان عربي الأصل والنشأة، وبدايته من المدينة المنورة، ومنها انتقل إلى العراق، حيث تطور بفعل العوامل المشار إليها، وهو ما أدى بعد ذلك إلى استقلال الكتابة التاريخية بعلم خاص مكتمل العناصر والأسباب والضوابط، بل والمنهج أيضاً.

أنواع الكتابة التاريخية:

١- <u>المغازي والسير:</u>

كما سبقت الإشارة؛ فقد تم الاهتمام بالسنة النبوية باعتبارها المصدر الثاني للتشريع، وكان الاهتمام بكل ما صدر عن النبيﷺ من قول وفعل وتقرير، إلى جانب حياته، وأعماله، وما جرى في أيامه من أحداث تخص أمور الدعوة (السيرة)، والسيرة كمصنَّف تعني أن أقواله وأفعالهﷺ هي المثل الأعلى الذي يجب الاقتداء به، ومن ثم لابد من جمعها وتدوينها، فالتشريع والتنظيم الإداري لدولة الإسلام الناشئة بالمدينة المنورة أدّيا إلى الاهتمام بالسنة عموماً، وبالحديث خصوصاً، إضافة إلى الاستمتاع بكل ما يتعلق بالرسولﷺ، وكل هذا أدى

---

[1] عن ذلك بالتفصيل أنظر : مقدمة ميخائيل عواد لكتاب رسوم دار الخلافة لأبى الحسين هلال الصابىء، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٤٧-٦٧ ؛ عبدالباقى السيد عبدالهادى : كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهرى، ص٨١-١٥٥.

[2] السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٦٩-١٧٤.

إلى ظهور مصنفات السيرة[1].

وقد أُطلق على الدراسات الأولى لحياة الرسولﷺ (المغازي) والمقصود بها غزوات الرسول وحروبه، ولكن في الواقع – وبعد استقراء مصنفات السيرة والمغازي- يتضح أنها تناولت كل ما يتعلق بالفترة التي عاشهاﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وأول من كتب في هذا عروة بن الزبير (ت٩٤هـ/٧١٢م)، واكتملت عند الزهري (ت١٢٤هـ/٧٤١م) وتلميذه موسى بن عقبة (ت١٤١هـ/٧٥٨م[2]).

واللافت أن كل من كتبوا في المغازي هم في الأصل محدِّثون باستثناء ابن إسحاق، ومن أهم من كتبوا في السيرة بعد ابن إسحاق في كتابه (السيرة والمبتدأ والمغازي)؛ جاء محمد بن عمر الواقدي المدني نزيل بغداد (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) في مصنفاته (السيرة)، (أزواج النبي)، (وفاة النبي)، وكتب المدائني السابق الإشارة إليه؛ مصنفات (صفة النبي)، (أمهات النبي)، (أزواج النبي)، (المغازي)، بالإضافة إلى السيرة الواسعة التي كتبها محمد بن سعد البصري نزيل بغداد (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) في مقدمة كتابه (الطبقات الكبرى) وهو المشهور بطبقات ابن سعد[3].

٢- <u>تاريخ الأنساب والقبائل والأسر:</u>

ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

(أ) تاريخ الأنساب:

وهو تاريخ مهم في حياة المجتمع العربي الإسلامي على مر العصور، لتناسبه مع طبيعة العرب المهتمة بأمور الأصول والأنساب والحرص على الانتماء القبلي، وبدت أهمية مصنفات الأنساب في كونها وسيلة ردع للشعوبيين المناوئين للأصل العربي، مع ملاحظة قلة الاهتمام

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٢ ص٣١٩.

(٢) يوسف هوروفتس : المغازى الأولى، ص١١ وما بعدها ؛ وانظر : السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون، ص٥٦ وما بعدها .

(٣) يوسف هوروفتس : المغازى الأولى، ص٧٥ وما بعدها .

بمصنفات الأنساب في العصر العباسي المتأخر، وصار الاهتمام منصبَّاً على المهنة أو الحرفة، أو المكانة العلمية، والمذهب، ولذا قال ابن الأثير: " فقد رأيت العلم بالأنساب دائراً، والجهل به ظاهراً، وهو ممّا يحتاج طالب العلم إليه ويضطر الراغب في الأدب والفضل إلى التعويل عليه. وكثيراً ما رأيت نسباً على قبيلة أو بطن أو جد أو بلد أو صناعة أو مذهب أو غير ذلك وأكثرها مجهول عند العامة غير معلوم عند الخاصة فيقع في كثير منه التصحيف ويكثر الغلط والتحريف. وكانت نفسي تنازعني إلى أن أجمع في هذا كتاباً حاوياً لهذه الأنساب جامعاً لما فيها من المعارف والآداب فكان العجز عنه يمنعني والجهل بكثير منه يصدني، ومع هذا فأنا ملازم الرغبة فيه معرض عما يباينه وينافيه، كثير البحث عنه والاقتباس منه[1]".

كان من أكثر مؤرخينا القدامى في المدينة اهتماماً بتاريخ الأنساب محمد بن سعد في طبقاته، والسابق الإشارة إليه، وخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وهما من علماء الحديث، ومن ثم نراهما يذكران الصحابة على أساس عشائرهم وقبائلهم بعد تقسيمهم لطبقات.

ومن علماء العراق في تاريخ الأنساب حماد بن أبي ليلى (ت١٦٤هـ/٧٨٠م)، وكان من أشهر الرواة في عصر الأمويين، وخالد بن طليق (كان حياً سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م)، ومحمد بن السائب الكلبي الكوفي (١٤٦هـ/٦٧٣م)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت١٩٣هـ/٨٠٨م[2]).

وكان سليمان بن أبي شيخ الواسطي (ت٢٤٦هـ/٨٦٠م) من علماء النسب والتاريخ. وعمر بن مطرف الكاتب (ت في عهد الرشيد) صنف (مفاخرة العرب)، و(مفاخرة القبائل في النسب)، ويُعد هشام بن محمد الكلبي الكوفي (ت٢٠٤هـ/٨١٩م) ضابطاً لعلم الأنساب، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م) صاحب سمر ونسب، وصنَّف (جمهرة

---

[1] أنظر : اللباب فى تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ج١ ص٧.

[2] ابن النديم : الفهرست، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص١٣٢-١٤١ ؛ وانظر : السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ص٤٨-٥٠.

النسب)، و(تسمية ما في شعر امرئ القيس من الرجال والنساء وأنسابهم)، واستخدم ابن سعد في طبقاته النسب، وله كتاب (الفريد في الأنساب)، و(الملوكي في الأنساب)، و(الموجز في النسب)، و(نسب العباديين)، وصنَّف محمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) كتاباً في أنساب القبائل. أما محمد بن سلام الجُمحي البصري (ت٢٣٢هـ/٨٤٦م) فقد صنف (نسب قريش). ويعد أحمد بن يحيى البلاذري البغدادي الكاتب (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) من أبرع علماء التاريخ والنسب، ومن أهم وأروع الكتب التاريخية في الأنساب كتابه (أنساب الأشراف[١]).

(ب) تاريخ القبائل والأسر:

سبقت الإشارة إلى اتخاذ الكتابة التاريخية منحىً قبلياً، وقام علماء القبائل بتصنيف الكتب والرسائل التي تمجد قبائلهم وتفتخر بها وبمآثرها قبل الإسلام وبعده، وانصبَّ الاهتمام أكثر بتاريخ المنتمين للقبائل والأسر من الحكام والقادة، فصنَّف سعيد بن أوس الأنصاري البغدادي (ت٢١٥هـ/٨٣٠م) كتاب (بيوتات العرب) وصنَّف عبيد الله سعيد بن الحكم بن أبي مريم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتاب (نوافل العرب)، وصنف المدائني السابق الإشارة إليه (فضائل قريش)، و(أخبار ثقيف)، و(أشراف عبد القيس)، وغيرها[٢].

وفي مطلع القرن الرابع الهجري اضمحلَّ الاهتمام بالأنساب والقبائل، ولوحظ ضعف التنظيمات القبلية – كما سبقت الإشارة – حيث تزايد الاختلاط بين العرب بعضهم البعض من جهة، واختلاطهم جميعاً بغير العرب من المولَّدين وأصحاب الأجناس المختلفة، ولذا اقتصر الأمر على التصنيف في أسرة بني العباس، فصنَّف أحمد ابن عبدالله بن محمد الثقفي المعروف بابن عماد الثقفى (ت٣١٩هـ/٩٣١م) (رسالة في تفضيل بني هاشم وأوليائهم وذم بني أمية وأتباعهم[٣])، وهو المصنِّف الذي صنف للخليفة الناصر كتاب (الفتوة)، وقاد هذا

[١] السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون، ص١٧٨،١٧٧.

[٢] مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص٩٩.

[٣] ابن النديم : الفهرست، ص٢٠٤.

التنظيم فترة من الزمن، وصنف محمد بن علي ابن سعيد شيخ ابن العميد الوزير الكاتب كتاب (أخبار العباسيين)، وصنَّف غيره كثير تحت هذا العنوان. وكتب الوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي المصري (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) كتاب (سيرة آل سلجوق)، و(تاريخ بني بويه[١]).

٣- تاريخ الفتوحات:

وهو التاريخ الذي انشغل بالتصنيف في الفتوحات العربية الشامخة في معظم أرجاء العالم نشراً للإسلام، ودعوةً وتبليغاً لدين الله، وأقدم من صنَّفَ في هذا المجال سيف بن عمر التميمي الكوفي (ت٢٠٠هـ/٨١٥م) كتاب (الفتوح الكبير)، وصنف الواقدي المشار إليه (فتوح الشام)، و(فتوح البلدان)، و(فتوح أفريقيا)، و(فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان[٢]).

ويُعد المدائني من أشهر المصادر في الفتوح العربية، حيث رجع إليه معاصروه ولاحقوه، فقد صنف ما يقرب من ستة عشر مصنفاً في الفتوح، ومن أهمها: (فتوح العراق)، و(فتوح الأحواز)، و(فتوح الأبلة)، و(فتوح الجزيرة)، و(فتوح الشام)، و(فتوح مصر)، و(فتوح برقة)، و(فتوح جرجان وطبرستان).. وغيرها كثير، ولعل من أهم ما تم تصنيفه في هذا المجال كتاب البلاذري (فتوح البلدان[٣]).

٤- التاريخ الإداري:

وانصبّ الاهتمام بهذا الفرع من الكتابة التاريخية نتيجة استقرار الدولة، وتنامي الأوضاع الاقتصادية والسياسية، والحاجة الملحة لإدارة وسياسة شعوب البلاد المفتوحة ممتدة الأطراف، ومن أهم موضوعات هذا النوع من التاريخ العربي الإسلامي:

---

[١] الذهبى : سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناقوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، ط١١،١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٢٣ ص٢٢٧.

[٢] ابن النديم : الفهرست، ص١٤٢ ؛ وانظر : مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص١٠٦.

[٣] ابن النديم : مصدر سابق، ص١٤٧،١٦٠.

(أ) تاريخ الخلفاء:

حيث عالج المؤرخون رقي مكانة ورفعة منزلة خلفاء بني العباس في نفوس المسلمين من السُنَّة على وجه الخصوص، فكتب هلال بن الحسن الصابي (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) (رسوم دار الخلافة)، حيث تناول المراسيم المتبعة والأصول والقواعد (البروتوكول) في دار الخلافة.

وصنَّف العلماء في سيرة الخلفاء وأبنائهم وزوجاتهم وأخبارهم، فكتب الواقدي (السقيفة وبيعة أبي بكر)، و(سيرة أبي بكر ووفاته). وصنف المدائني (تسمية من تزوج من نساء الخلفاء)، و(أخبار الخلفاء)، و(تاريخ الخلفاء)، و(أخبار السفاح[1]).

وصنف أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) كتاب (من احتكم من الخلفاء إلى القضاة). وصنف أحمد بن أبي طاهر طيفور البغدادي (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) كتاب (أبواب الخلفاء)، و(أخبار المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر). وصنف محمد بن يحيى بن عباس الصولي (٣٣٥هـ/٩٤٦م) كتاب (الأوراق في أخبار الخلفاء). وصنف ابن العمراني؛ محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) كتابه (الأنباء في تاريخ الخلفاء). أما تاج الدين؛ علي بن أنحب، المعروف بابن الساعي (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) فقد صنَّف كتاب (تاريخ نساء الخلفاء من الحرائر والإماء)، و(أخبار الخلفاء)، و(مناقب الخلفاء[2]).

(ب) تاريخ الوزراء:

ومن بين من صنفوا في هذا الفرع ابن عمار الثقفي البغدادي (ت٣٠٩هـ/٩٢١م)، الذي وضع كتاب (الزيادات في أخبار الوزراء). والجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس، (ت٣٣١هـ/٩٤٢م)، الذي صنف أهم مصدر تاريخي في هذا الموضوع، وهو (الوزراء والكتاب). وصنف محمد بن يحيى بن العباس الصولي (ت٣٣٥هـ/٩٤٦م) كتاب (الوزراء).

---

[1] ابن النديم : الفهرست، ص١٤٦، ١٤٧.

[2] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١١٦، ١١٧.

وصنف أبو هلال الصابي كتاب (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء). وكتب ابن الساعي (تاريخ الوزراء)، و(أخبار الوزراء[1]).

(ج) القادة والأمراء:

ومن أهم مصنفات هذا الفرع كتاب أبي عبيدة (أخبار الحجاج)، وكتاب (مسلم ابن قتيبة). وصنف المدائني كتاب (عبدالله بن عامر الحضرمي)، و(عبدالله بن عامر كريز)، و(أخبار الحجاج ووفاته)، و(مسلم بن قتيبة). وصنف محمد ابن يزيد المهلبي (المهلب وأخباره وأخبار وفاته). أما الصولي فصنف كتاب (مناقب علي بن الفرات[2]).

(د) القضاة:

صنف أبو عبيدة (قضاة البصرة). وصنف الهيثم بن عدي الكوفي (ت٢٠٩هـ/٨٢٤م) كتابه (قضاة الكوفة والبصرة). وصنف المدائني (قضاة أهل البصرة)، و(قضاة أهل المدينة). وكتب وكيع تلميذ الشافعي (أخبار القضاة وتاريخهم وأحكامهم[3]).

٥- <u>التاريخ العام:</u>

ومن أهم من صنف في هذا الفرع المهم من التاريخ العربي الإسلامي؛ الواقدي في كتابه (التاريخ الكبير)، وأبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي (ت٣٢٣هـ/٩٣٤م) الذي صنف كتابه (التاريخ)، وكتب عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الواسطي (ت٢٣٥هـ/٨٤٩م) كتاب (التاريخ)، وأما أحمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) فقد صنف أيضاً كتاب (التاريخ) وهو كتاب متميز، تناول في قسمه الأول التاريخ العالمي قبل الإسلام، ما أعطى هذا الكتاب أبعاداً ثقافية وحضارية غاية في الأهمية، وصنف ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) كتابه (عيون الأخبار)، و(المعارف) وهذا الأخير جمع فيه بين فكرة التاريخ العالمي وفكرة الوحدة الثقافية للأمة العربية الإسلامية،

---

[1] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١١٩، ١٢٠.

[2] ابن النديم : الفهرست، ص١٤٦.

[3] لمزيد من التفاصيل أنظر : السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١٣٢، ١٣١ ؛ مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص١٠١.

obeikandl.com

فواجه بهذا الكتاب الحركة الشعوبية المتقدة في عصره، أما أبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) فقد صنف (الأخبار الطوال)، وأكد فيه دور العرب وغيرهم في التاريخ. أما كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) فقد عبّر فيه عن قضية تكامل الرسالات في التاريخ، ويؤكد فيه أيضاً إرادة الله في الفعل البشري، ويعد كتاباً متميزاً في مجاله، وقد ذيّل عليه أكثر من مؤرخ كالهمذاني؛ محمد بن عبدالملك (ت٥٢١هـ/١١٢٨م)، وابن طيفور، ثابت بن سنان (ت٣٦٣هـ/٩٧٣م[١]).

جدير بالذكر أن المسعودي (علي بن الحسين، ت٣٤٦هـ/٩٧٣م) قد صنف كتابيه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، و(التنبيه والإشراف)، وهما من أهم كتب التاريخ العام[٢]، وصنف ابن مسكويه؛ أحمد بن محمد بن يعقوب (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) كتابه الأشهر (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، وذيّل عليه أبو شجاع، محمد بن علي البغدادي (ت٥٩٠هـ/١١٩٣م) كتابه المعروف (تاريخ ابن هدمان).

وصنف أبو الفرج؛ عبدالرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) كتابه المشهور (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك)، وهو أول من فصل الحوادث التاريخية عن الوفيات، ووضع الوفيات بعد نهاية أحداث كل سنة يذكرها، ورتبها على حروف المعجم، كما كتب سِبْطه، شمس الدين، يوسف بن قزاوغلي، الشهير بسبط بن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) كتابه المشهور (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)، حيث ذيّل عليه اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م[٣]).

أما المؤرخ الأشهر عز الدين، علي بن أبي المكارم، محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م) فقد صنف الكتاب الأشهر في التاريخ الوسيط (الكامل في التاريخ) وهو من الكتب المرتبة على الحوليات، واتبع منهج ابن الجوزي في التعقيب على كل سنة بذكر الوفيات[٤].

---

[١] السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون، ص٩٧-١٠٤.

[٢] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١٧٨ ؛ وانظر : فتحى أبو سيف : محاضرات حول التاريخ ومدارسه فى الفكر الإسلامى، دار النهار، القاهرة، د.ت، ص٣٦.

[٣] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١٧٩.

[٤] نفسه، ص١٨٠،١٧٩.

أما ابن الساعي؛ علي بن أنجب – السابق ذكره – فقد صنف أشهر مصنفاته، كتابه المعروف بـ (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير)، وهو كتاب كبير يزيد عن ثلاثين جزءاً، ضاعت كلها باستثناء الجزء التاسع الذي حققه العلَّامة مصطفى جواد، وبضياع هذا الكنز الثمين فقدنا أهم وأصدق شاهد عيان لأحداث سقوط بغداد[1].

ويُذكر أن من أهم الكتب التاريخية التي تم التذييل عليها كتاب (التاريخ) لثابت ابن سنان بن ثابت بن قرة الصابي (ت٣٦٣هـ/٩٧٣م) حيث اشتمل هذا المصنف المهم على الحوادث والوقائع من سنة (١٩٠هـ/٨٥٠م) وحتى سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) وقيل أنه كان في أربعين مجلداً، وذيّل عليه ابن أخته هلال الصابي (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م)، حيث انتهى به إلى سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، وذيل عليه ولده غرس النعمة، محمد بن هلال، واستمر به إلى حوادث (٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، ثم ذيّل عليه ابن الهمذاني إلى سنة (٥١٢هـ/١١١٨م)، وذيل عليه ابن الزاغوني (علي بن عبدالله بن نصر الحنبلي، ت٥٢٧هـ/١١٣٢م)، وذيله العفيف صدقة بن الحداد (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) حتى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، ثم ذيّله عبدالرحمن بن الجوزي إلى سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وذيله أيضاً ابن القادسي إلى سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م).

٦- <u>التواريخ المحلية للعراق والأمصار:</u>

وهي كثيرة ومتعددة من الصعب الإسهاب فيها في هذه العجالة، وسنكتفي بذكر تاريخ بغداد، ونتفاً مما عداها، فقد شاعت خلال الحقبة العباسية ظاهرة ذيول التواريخ على الكتب المشهورة، من مثل كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، الذي ذيل عليه أبو سعد السمعاني (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، وذيل على ذيل السمعاني؛ أبو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي الواسطي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، كما ذيل عليه ابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) على الخطيب مباشرة بكتابه العظيم (التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها الأعلام ومن وردها من الأنام[2])..وغيرها كثير.

---

[1] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص١٨٠.

[2] نفسه، ص١٥٤،١٥٣.

أما ما يتعلق بتاريخ بغداد؛ فقد صنّف طيفور البغدادي (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) كتابه (تاريخ بغداد)، وصنف ابنه عبدالله كتابه (ما زاده على كتاب أبيه في تاريخ بغداد) وتلاهم الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد)، الذي لخصه الإمام الذهبي، ثم ذيل عليه ابن النجار (الذيل على تاريخ الخطيب)، ثم صنف تقي الدين محمد بن رافع السلامي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) كتابه (الذيل على ذيل ابن النجار)، والتذييل عليه لأبي بكر ابن المارستانية، والذيل عليه لابن الساعي.

وممن صنف أيضاً في تاريخ بغداد؛ أحمد بن الطيب السرخسي المقتول زمن الخليفة المعتضد كتابه (فضائل بغداد وأخبارها)، وكتب هلال بن الصابي كتابه (أخبار بغداد) وسماه الحموي بـ(كتاب بغداد[١]).

٧- <u>التاريخ الاقتصادي:</u>

سعى هذا الفرع من التاريخ العربي الإسلامي في العراق إلى معالجة مختلف المسائل المالية كالعملة والسكة والخراج وأحكامه، بالإضافة إلى معالجة أحكام الأراضي، والملكية الزراعية، فقد كتب أبو يوسف؛ يعقوب بن إبرهيم القاضي (ت١٨٣هـ/٧٩٩م) مصنفه الشهير (كتاب الخراج)، وصنف أبو يحيى ابن آدم القرشي البغدادي (ت٢٠٣هـ/٨١٨م) أيضاً (الخراج)، وهناك كذلك كتاب (الخراج) لعبدالملك بن فريد الأصمعي (ت٢١٦هـ/٨٣١م)، وكذلك هناك كتاب (الخراج وصناعة الكتابة) لقدامة بن جعفر البغدادي الكاتب الناقد (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م)، وهناك كثيرون صنفوا في الخراج يضيق المجال عن ذكرهم[٢].

أما من صنف في الأمور المالية؛ ابن عمر الواقدي الذى صنف كتابه (ضرب الدنانير والدراهم)، و(كتاب الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي (ت٢٢٥هـ/٨٣٩م)،

---

[١] السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، ص١٥٤.

[٢] محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار التراث، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥م، ص٤.

وصنف المدائني كتاب (ضرب الدراهم والصرف)، و(ت٢٠٤هـ/٨١٩م) الذي صنف كتابه الفريد (أسواق العرب[١]).

٨- كتب الرجال:

سبقت الإشارة إلى الربط بين علم الحديث وعلم التاريخ، سواء من ناحية الأسلوب، أو المنهج، أو مدى تأثر المؤرخين بأهل الحديث في الإسناد، حيث امتد هذا التأثير ليشمل تقييم وتقويم الروايات التاريخية.

وسبقت الإشارة أيضاً إلى قضية نحل الروايات ووضعها في علم الحديث، وهو ما أصاب علماء الحديث بالفزع من انتشار هذه الظاهرة، فراحوا ينقحون ويدققون وينقدون ويجرّحون ويعدّلون في بعض العنعنات التي سعت إلى الدس على رسول اللهﷺ بسبب المواقف السياسية والمذهبية والشعوبية وغيرها. وكان نشاط علماء الحديث فياضاً في دراسة أحوال الرواة من حيث مواليدهم ووفياتهم وأسمائهم وألقابهم وأنسابهم وميولهم السياسية والمذهبية بل والعقائدية، وبحثوا في أراء الثقات فيهم بتوظيف العلم النادر والفريد (الجرح والتعديل)، وكذا (الرواية والدراية[٢]).

لقد بذل علماء الحديث جهوداً مضنية لمجرد التحقق من راوٍ معين فيسافرون إليه شهوراً، ويلتقون بشيوخ الرواية وأقربائهم وجيرانهم للتأكد من مدى صدقه، وعدم اشتهاره بقول الزور، أو شرب الخمر، أو الخوض في الأعراض، ومن ثم تجمعت لدى علماء الحديث مادة ضخمة كان لابد من تصنيفها وتبويبها، وترتيبها ليسهل الوصول إليها عند الحاجة، وتم وضعها في كتب سميت بكتب الرجال، وكتب الجرح والتعديل، ونتج عن هذا أمران في غاية الأهمية:

---

[١] مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص١٠١.

[٢] عن ذلك بالتفصيل أنظر : ابن حجر : نزهة النظر فى توضيح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر، تحقيق نور الدين عتر، دار البصائر، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص١٣٤-١٣٩ ؛ عبدالله الغمارى : توجيه العناية لتعريف علم الحديث رواية ودراية، تحقيق صفوت جودة، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

أولهما: أن علماء الحديث قد أهملوا قدراً كبيراً من تلك المادة الثرية التي ثبت أن بها تدليس سواء من حيث الراوي أو من حيث المادة المروية، فتلقَّف بعض المؤلفين هذه المادة ووظفوها في كتابة التاريخ، فانصبغ بعض مصنفات المؤرخين بالكذب والتدليس الذي نجا منه علم الحديث.

الثاني: قام بعض المصنفين في الشعر والأدب والنقد الأدبي والتاريخ والفنون بإعداد مصنفات على نفس طريقة علماء الحديث، بعضها كان متقناً وجيد الإسناد، وبعضها كان غثاً ورديئاً، وكل هذا انعكس بلا شك على الحقيقة التاريخية، وزاد من صعوبة هذه الإشكالية انتشار ظاهرة النقل عن السابقين، فنجد المؤرخ ينقل عن شيخه، أو عن مؤرخ سابق عليه نقلاً حرفياً سواء أشار إلى هذا أم لم يشر، وقد عمدنا في هذا الكتاب إلى إيراد نموذج واحد على هذا الأمر، يتعلق برواية ابن الأثير المتعلقة باتهامه للخليفة الناصر لدين الله العباسي بأنه أغرى المغول بالهجوم على المشرق الإسلامي وإسقاط الخوارزمية الذين كانوا ينصابون دار الخلافة العداء[1].

وبصرف النظر عن حقيقة هذه الواقعة من عدمها، والتي عالجناها في ثنايا بحثنا عن الخليفة الناصر، إلا أن المؤرخين المعاصرين واللاحقين لابن الأثير رددوا نفس الفرية نقلاً حرفياً عن ابن الأثير.

الذي يهم في صدد علم الرجال أن انتشرت مصنفات تتناول التراجم، بعضها يحتوي توثيق وتخريج الرواة، وبعضها لا يرقى إلى مستوى هذه المنهجية الدقيقة، ومن ثم تم ابتكار خمسة أساليب منهجية لتنظيم كتب الرجال فيما بعد، وهي:

(أ) كتب التنظيم على الطبقات:

والمقصود بالطبقة: الجماعة المشتركون في التعليم على يد شيخ معين، مثل كتاب (الطبقات) لعلي بن عبدالله المديني البصري (ت٢٣٤هـ/٨٤٨م)، وكتاب (الطبقات) لابن سعد[2]، و(طبقات القراء لخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م[3])، وكتاب (طبقات

---

[1] أنظر : الكامل فى التاريخ، ج٩ ص٣٦١.

[2] أحمد شاكر : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص٢٣٩.

[3] مناع القطان : مباحث فى علوم الحديث، مكتبة وهبه، القاهرة، ص٦٤.

الشعراء) لابن المعتز العباسين و(طبقات الشعراء) لابن السلام، و(طبقات النحويين) للزبيدي (ت٣٧٩هـ/٩٨٩م) .. وغيرها.

(ب) كتب التنظيم على الأنساب:

وخير مثال لهذا النوع أن يجمع المصنِّف رواة الحديث الذين هم من قبيلة واحدة، فيذكرهم في موضع واحد، مثل كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد.

(ج) كتب التنظيم على البلدان:

حيث يقوم المؤلف بتنظيم الرواة على أساس بلدانهم، كما فعل ابن حبان (ت٢٤٥هـ/٨٥٩م) في كتابه (مشاهير علماء الأمصار)، وكتاريخ نيسابور للحاكم النيسابورى، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى، وتاريخ دمشق لابن عساكر[1].

(د) كتب التنظيم على حروف الأبجدية:

وهو من أكثر المصنفات انتشاراً لسهولته ويسره في الوصول إلى الترجمة المطلوبة، وخير مثال على هذا النوع (تاريخ بغداد) للخطيب، وكتاب ابن الدبيثي (ذيل تاريخ بغداد).

(ه) كتب التنظيم على تاريخ الوفاة:

وشاع هذا النوع شيوعاً كبيراً كسابقه، وهذا التنظيم أتاح حرية حركة للمؤلف، حيث من الممكن ألا يقتصر على علماء بعينهم في تخصص محدد، بل من الممكن أن يشمل الكتاب علماء في الشعر والقراءات والتفسير والتاريخ والتجارة، والمعلمين، والمؤدبين، بل والأمراء والملوك والوزراء.. وغيرهم.

ومن المصنفات في الوفيات: (وفيات الشيوخ) لأبي الفضل أحمد بن خيرون البغدادي (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م)، و(الوفيات) لأبي الفتح محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي الفوارس البغدادي (ت٤٣٢هـ/١٠٤٠م).

أما ما تم تصنيفه في الثقات والضعفاء من رواة الحديث والتاريخ فهو كثير، ومنه على سبيل المثال (الطبقات الكبرى) لابن سعد، ومن أكثرها أهمية أيضاً كتاب (العلل ومعرفة

---

[1] مناع القطان : مباحث فى علوم الحديث ، ص٦٤.

obeikandl.com

الرجال) للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م).

ومن كتب الضعفاء ما صنَّفه الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م) (الضعفاء والمتروكين)، وكتاب (الضعفاء) لابن الجوزي[1].

نموذج للنقل الحرفي للمؤرخين اللاحقين من سابقيهم

هذا نموذج للنقل الحرفي الذي يقوم به بعض المؤرخين اللاحقين من مصادر المؤرخين الذين عاصروهم أو سبقوهم، والملاحظ من هذه النماذج أن النقل قد تم دون تمحيص أو روية أو نقد، ويجب ملاحظة أمر آخر، وهو تأخُّر معظم الباحثين الناقلين للخبر عن الفترة التي قيل فيها، ومن ثم فهم ليسوا معاصرين للواقعة، وإنما أخذوا دون نقد وتمحيص.

وهنا يأتي دور الباحث المعاصر الذي يتصدى للدراسة ذات الأبعاد الحضارية أو التاريخية، حيث يجب أن يقوم بنقد الرواية والتحقق منها، ومقارنتها بغيرها، والاعتماد قدر الإمكان على المؤرخ الذي كان أقرب ما يكون مكاناً وزماناً من الحدث، ولأن إطلالة الباحث على التاريخ تكون من خلال المؤرخين ومصنفاتهم في المقام الأول؛ فإنه يمكن القول إن المؤرخين في هذا المثال الوارد قد انقسموا إلى قسمين في نقلهم للخبر، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: مؤيد للخليفة الناصر مطلقاً .

القسم الثاني: معارض للخليفة الناصر مطلقاً.

والواقع أن القسم الأول من المؤرخين إما كان معاصراً للواقعة، أو كان متأخراً عنها، ولكنه احتكم إلى نظرة موضوعية للأمور، وقرأ الأحداث قراءة صحيحة، وأما القسم الثاني فكان معاصراً لفترة البحث، ولكن لظروف معينة اتخذ موقفاً سلبياً...وسايره مجموعة من المؤرخين الذين نقلوا عنه دون تمحيص ودون روية.

وكان من المفترض أن نقوم بتتبُّع آراء كل المؤرخين حول الخليفة الناصر، وذلك يقتضي استدعاء آراء الباحثين المعاصرين من خلال مراجعهم التي تم الاعتماد عليها، ولكن خوفاً

[1] عن ذلك بالتفصيل أنظر : ابن حجر : نزهة النظر، ص١٤٢ وما بعدها .

من الاستطراد نكتفي بتسجيل ابتكار الفكرة مع الاكتفاء بإثارة قضية ابن الأثير، وكراهيته المفرطة للخليفة الناصر، التي يبدو منها أن موقف بدر الدين بن لؤلؤ حاكم الموصل آنذاك قد أثَّر على موقف ابن الأثير المقيم في كنفه، وكان يناصب الخلافة العداء، وأثبتت الأحداث فيما بعد تواطؤ ملوك الأطراف ومنهم حاكم الموصل مع المغول عند اجتياحهم بغداد، ويكفي هنا إيراد مقاطع من أقوال ابن الأثير، ونماذج من أقوال المؤرخين الذين نقلوا عنه، وقالوا بما قال، وكذا إيراد نماذج من أقوال الذين تناولوا الخليفة الناصر بشكل موضوعي، أو بشكل مبالِغ في المدح، على أن يتم استكمال هذا المشروع في دراسة مستقلة أكثر شمولاً إن شاء الله.

القسم الأول الذي كان معارضاً للخليفة الناصر فكان أهمهم :

- **ابن الأثير: (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .**

يقول: "ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرب في أيامه العراق، وتفرّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة، وكذلك أيضاً منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيور، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له: ابن السفت ! من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه!، وينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع عن أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد إلا رمى للخليفة إلا أنا، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم.

وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر: فكان ما كان مما لست أذكره فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر[١]".

- **ابن العبري: (٦٨٤هـ/١٢٨٦م)**

"تولَّى الظاهر الخلافة بعد وفاة والده الخليفة الناصر: ثم أظهر من العدل والأمن ما لا يمكن وصفه، وأزال الظلم، وردَّ على الناس أموالاً وأملاكاً جليلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جددت، وارتفع عن الناس ما كانوا ألفوه من الخوف في زمان والده[٢]".

- **ابن شاهنشاه الأيوبي: (٧٣٢هـ/١٣٣١م)**

"وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً لهم، خرب في أيامه العراق، وفرّق أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفت، وهرب من بغداد إلى الشام، وقد يُنسب للإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق ... ولما بويع ولده الظاهر أظهر العدل وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين[٣]".

- **ابن واصل : (٦٩٧هـ/١٢٩٨م)**

"وكان رديء السيرة في الرعية، مائلاً إلى الظلم والعسف، فخربت في أيامه العراق، وتفرق أهلها، وأخذ أملاكهم، وكان يفعل أفعالاً متضادة، ويتشيع بخلاف آبائه[٤]".

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١٠، ص ٤٥٣.

[٢] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت: الأفاق العربية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٢٤٢.

[٣] ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، د. ط، القاهرة: مكتبة عالم الكتب، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٣٢.

[٤] ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: طبعة إدارة الثقافة العامة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ج٤، ص ١٦٣ - ١٦٦.

- **المقريزي: (٨٤٥ هـ/١٤٤١م)**

اعتبر خروج المغول سببه الخليفة الناصر لضرب الدولة الخوارزمية وقال تكراراً لما سبق من أقوال[١].

وأما القسم الآخر الذي كان مؤيداً للخليفة الناصر فكان أهمهم:

- **ابن جبير: (دخل بغداد ٥٨٠هـ/١١٨٤م)**

"هو ميمون النقية عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له"[٢].

- **الذهبي: (٧٤٨هـ/١٣٧٤م)**

قال الذهبي ناقلاً عن المؤرخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي: " لم يزل الناصر في عز وقمع الأعداد، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دمغه، ولا عدو إلا خذله، كان شديد الاهتمام بالملك، لا يخفى عليه كبير شيء من أمور رعيته، أصحاب أخباره في البلاد، كانت له حيل لطيفة، وخدع لا يفطن لها أحد، يوقع صداقة بين ملوك متعادين، ويوقع عداوة بين ملوك متوادين ولا يفطنون ... ملأ القلوب هيبة وخيفة، حتى كان يرهبه أهل الهند، وأهل مصر، فأحيى هيبة الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثم ماتت بموته، إذا جرى ذكره بين الملوك والأكابر خفضوا أصواتهم إجلالاً له"[٣].

- **السيوطي: (٩١١هـ/١٥٠٥م)**

وقد نقل السيوطي عن الذهبي الناقل أصلاً عن موفق الدين البغدادي[٤].

---

[١] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفي زيادة، د. ط، القاهرة: دار الكتب، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، ج١، ص٤٥.

[٢] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المسماه رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، د. ط، بيروت: دار صادر، د.ت، ص٢٠٣.

[٣] الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ١٩٢.

[٤] السيوطي : تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد بن محيي الدين، ط٢، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٥٠٠.

- **ابن النجار: (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)**

"دانت للناصر السلاطين، ودخل تحت طاعته المخالفون، ذلَّت له العتاه، وانقهرت بسيفه البغاه، واندحض أضداده، وفتح البلاد العديدة، وملك ما لم يملكه غيره، وخُطِبَ له بالأندلس والصين ن وكان أسد بين العباس تتصدع لهيبته الجبال، وتذل لسطوته الأفيال، وكان حسن الخَلْق، أطيف الخُلُق، كامل الظّرف، فصيحاً بليغاً، له التوقيعات المسددة والكلمات المؤيدة، كانت أيامه غرة في وجه الدهر، ودرة في تاج الفجر[١]".

- **ابن طباطبا: (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)**

"وكان يافعة زمانه ورجل عصره، في أيامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكلية، وأنشأ الناصر من المبار والوقوف ما يفوق الحصر، وبنى من دور الضيافات والمساجد والربط ما يجاوز حد الكثرة، وكان كل وقته مصروفاً إلى تدبير أمور المملكة ... وكان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم، بصيراً بالأمور مجرباً، سائساً مهيباً، مقداماً عارفاً شجاعاً متأدباً، حاد النظر متوقد الذكاء والفطنة، يفاوض العلماء مفاوضة خبير، ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير، طالت مدته، وصفا له الملك .. كل أصحاب المناصب يخافه ويحاذره[٢]".

- **ابن الدبيثي: (٦٣٧هـ/١٢٤٠م)**

كال المديح والثناء على الخليفة الناصر بشكل مبالغ فيه[٣].

---

[١] ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد، حيدر آباد، الدكن، المطبعة العثمانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٨٢.

[٢] محمد بن علي بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة: د . ن، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ٧٧.

[٣] ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق، بشار عواد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص ٢٣٣.